

الدولة الحمادية (408-547هـ/1018-1152م)

تمهيد: تُعد دولة بني حماد من أبرز الدول الإسلامية التي نشأت في المغرب الأوسط، وتحديدًا في الجزائر. تأسست على يد حماد بن بلكين الزيري، الذي أظهر براعة في القيادة والإدارة. في عام 398هـ/1007م، أنشأ مدينة القلعة واتخذها عاصمة له، معلنًا استقلاله عن الدولة الزيرية في 405هـ/1014م¹، ومبايعًا الخلافة العباسية في بغداد.

شهدت الدولة الحمادية توسعًا جغرافيًا ملحوظًا، حيث امتدت حدودها لتشمل مناطق مثل: المسيلة، طبنة، بلاد الزاب، تيمرت، وبلزمة. في عهد الناصر بن علناس، نُقلت العاصمة إلى بجاية عام 460هـ/1068م²، والتي أصبحت مركزًا ثقافيًا وحضاريًا بارزًا. كما خضعت مدن مثل فاس، مليانة، قسنطينة، وتونس لسيطرة الحماديين خلال فترات مختلفة من حكمهم، انتهى حكم الدولة الحمادية في 547هـ/1152م، عندما سقطت على يد الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن علي³.

1- التركيبة الاجتماعية للدولة الحمادية:

يمكن فهم التركيبة الاجتماعية للدولة الحمادية خلال عدة جوانب، منها الفئات السكانية والهجرات التي شهدتها الدولة، إضافة إلى التوزيع المهني والثقافي بين سكانها، فقد تألف المجتمع الحمادي من مجموعة من القبائل الأمازيغية، وعلى رأسها قبيلة صنهاجة التي كان ينتمي إليها الحكام الحماديون، كما كان هناك حضور قوي للعنصر العربي الوافد من شبه الجزيرة العربية، خاصة بعد دخول القبائل الهلالية في عهد الناصر بن علناس، إضافة إلى ذلك فقد شهد تركيبة المجتمع الحمادي دخول عدد كبير من العرب الذين هاجروا من القيروان بعد تخريبها من قبل الهلاليين سنة 449هـ/1057م، وكان بينهم العلماء، والتجار، وطلبة العلم، مما أثرى الحياة الثقافية والعلمية في الدولة.

وفي سياق متصل شهدت الدولة الحمادية موجات من الهجرة الأندلسية والصقلية، خاصة بعد سقوط المدن الأندلسية تحت حكم المرابطين، حيث استقبلت القلعة العديد من العلماء والفنانين والصناع الأندلسيين الذين

1 ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ج6، صص 227-236.

2 رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1997، صص 17-18.

3 المرجع نفسه، صص 102-105.

ساهموا في ازدهار الحضارة الحمادية، فقد شكلت هذه الهجرات رافدًا مهمًا في تطور الحياة الاقتصادية والثقافية، حيث جلب الأندلسيون خبراتهم في الزراعة، والصناعة، والتعليم.

كما أن الدولة الحمادية شهدت تركيبة اجتماعية مهنية أدت هي الأخرى أدوارها بشكل ملفت للانتباه، فظهرت طبقة الفلاحين الذين استفادوا من الأراضي الخصبة في سهول الحضنة وكانوا يستقرون في الأماكن والمجالات الجغرافية التي يمكنها أن تحتضن أنشطتهم، بالإضافة إلى فئة التجار الذين استفادوا من الموقع الجغرافي الاستراتيجي للدولة، والحرفيين الذين برعوا في الصناعات التقليدية مثل صناعة الفخار والخزف والمنسوجات⁴.

2- الصراع المذهبي بين السنة والشيعة في الدولة الحمادية والدعوة للخلافة العباسية:

1.2 الصراع المذهبي بين السنة والشيعة:

عند تأسيس الدولة الحمادية، كانت منطقة المغرب الأوسط تحت النفوذ الفاطمي، وكان المذهب الإسماعيلي الشيعي هو السائد بفضل دعم قبيلة كتامة للفاطميين، ومع استقلال الدولة الحمادية عن الزييريين والفاطميين، قطع حماد بن بلكين الدعوة للفاطميين وأعلن تبنيه للمذهب السني⁵، مما أدى إلى توتر مع أنصار الفاطميين في المنطقة، كما كان هناك تواجد للمذهب الشيعي في بعض المناطق التي بقيت على ولائها للفاطميين، لكن مع مرور الزمن، تراجع نفوذهم مع تعزيز الحماديين للمذهب المالكي⁶.

2.2 الدعوة للخلافة العباسية:

بعد إعلان استقلال الدولة الحمادية عام 405هـ/1014م، قام حماد بن بلكين بقطع الولاء للفاطميين وأعلن دعوته للخلافة العباسية في بغداد، مما جعله في صراع مع الدولة الزييرية التي كانت لا تزال موالية للفاطميين، وقد أدت هذه الخطوة إلى نزاعات بين الحماديين والزييريين، حيث حاول المعز بن باديس إعادة السيطرة على الدولة الحمادية لكنه لم ينجح، دعمت هذه السياسة استقرار الحكم الحمادي، وأصبحت القلعة مركزًا للدراسات الفقهية السنية، خصوصًا في المذهب المالكي الذي كان الأكثر انتشارًا في البلاد.

3- الحياة العلمية:

اهتم الحماديون بالعلم والعلماء، فظهر بالجزائر الحمادية العلماء كأي بكر بن الحسين الميورقي وأي القاسم البسكري وأي محمد الأشيري، ومن الشعراء كابن رشيق وابن حمديس وعبد الحق البجائي، والأطباء كابن علي بن

4 رشيد بورويبة، المرجع السابق، صص 166-202.

5 عبد الحليم عويس، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط2، 1991، صص 255-257.

6 كريمة شقلاقة، نصيرة شبيب، الدولة الحمادية (408-547هـ/1115-1156م) من خلال كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مذكر ماستر، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن خلدون تيارت-، الجزائر، 2020-2021، صص 58-62.

الطبيب وابن أبي المليلح، وعُرفَ عن بجاية أنها "عاصمة الرياضيات" وذلك بفضل احتضانها لـ "معهد سيدي التواتي" الذي كان بمثابة جامعة، ولم تُستثنِ الإناث من فرصة الدراسة فيه، ومنه أخذ الأوروبيون الأرقام العربية والجبر والمقابلة وهندسة الإغريقي إقليدس. ، وكان لعلوم الشريعة المنزلة الأولى ثم تليها علوم العربية، وكانت اللغة العربية هي اللسان الرسمي للدولة ثم جاء العرب الهلاليون فقاموا بتعريب بلاد المغرب. وكانت المساجد والمعاهد العلمية حافلة بدروس العلم والمجالس العلمية، وكان المذهب السني المالكي هو المذهب الرسمي للدولة الحمادية، وأصبحت بجاية مركزا حضاريا يأوي إليه الكثير من علماء المشرق أو المغرب، ومنهم ابن حمديس الصقلي من الأدباء⁷، وأبي الفضل بن النحوي التوزري، حتى أن أهل بيزا الإيطالية نزلوا إلى بجاية وتعلموا منهم صنع الشمع، ولا يزال مسمى الشمع عندهم بوجي (Bougie) وهو اسم الإفرنجي لمدينة بجاية⁸.

خلاصة: شهدت دولة بني حماد تدهورا سياسيا وإداريا في آخر مراحلها، ويمكن تلخيص أسباب انهيار الدولة الحمادية في عدة نقاط رئيسة، أول هذه الأسباب يتمثل في ضعف الحكم المركزي وتفشي الفساد داخل أجهزة الدولة أدى إلى فقدان السيطرة على المناطق التابعة لها، كما أنها شهدت صراعات داخلية كثرة مع أبناء عموماتهم الزيريين والمرابطين، أما على الصعيد الخارجي فقد بدأ الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن علي حملاتهم التوسعية في منتصف القرن السادس الهجري، حيث تمكنوا من القضاء على الدولة المرابطية، ثم توجهوا نحو الدولة الحمادية، بحيث استولوا على عدة مناطق، وكان سقوط بجاية عام 547هـ/1152م بمثابة النهاية الرسمية لحكم بني حماد،⁹ فقد واجه يحيى بن العزيز آخر حكام الدولة الحمادية صعوبات كبيرة في التصدي للموحدين بسبب ضعف الدولة نتيجة الصراعات الداخلية والانقسامات القبلية، وبعد اشتداد الضغط عليه، اضطر إلى الاستسلام للموحدين، مما أدى إلى انهيار الدولة الحمادية بالكامل.

7 محمد بن عميرة، القلعة قاعدة بني حماد الثقافية الأولى، **حولية المؤرخ**، اتحاد المؤرخين الجزائريين، ع1، 2002، ص 110 / أحمد سعودي، الحياة الاقتصادية والثقافية لقلعة بني حماد، **مجلة هيودوت للعلوم الإنسانية والاجتماعية**، مؤسسة هيودوت للبحث العلمي والتكوين (الجزائر)، م5، ع2، 2021، صص 141-146.

8 إسماعيل العربي، العمران والنشاط الاقتصادي في الجزائر في عصر بني حماد، **مجلة الأصالة**، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، ع19، أبريل 1974، ص346.

9 عبد الحليم عويس، المرجع السابق، صص 198-202.

